

ملفوظية الرحلات العربية إلى الغرب

عبد النبي ذاكر

كلية الآداب — أكادير

تتوخى مقاربتنا لمكون الملفوظية رصد شروط إنتاج الملفوظات الرحلية، أي متابعة سياقها السيكيو — سوسولوجي، أو بعبارة أوضح تعقب سياقها الخارج — لغوي. وهو خروج مؤقت من النص — بغية التفسير والتوكيد — لكنه منبثق منه، على أساس أننا نؤمن بأن الملفوظية — في العمق — هي مكون لغوي يفترضه الملفوظ منطقاً، بحيث نعثر على سماته وآثاره في الخطاب الرحلي العربي المنجز (1). وخلافاً لجوزيف كورتيس الذي يرى أن هناك تعارضاً بين الملفوظية كتمظهر خارج — لغوي، وبينها كتجلٍ لغوي، نرى أن هناك تكاملاً بين التصورين من الزاوية التداولية. ولا شك أن تعزيز مقاربتنا للسياق النصي الداخلي، وتفسيرها بالسياق الخارج — نصي وضمنه المكونات الخطابية عبر — التناصية (Transtextueles) الراصدة للتعالي النصي شيء قيم بالاهتمام. ومن شأن هذه المقاربة الشعرية المضاعفة أن تنير الكثير من المكونات الملفوظية القائمة على تشغيل واستثمار إستراتيجيات خطابية تتحكم فيها رغبة في تواصل المخاطب بمخاطبه عبر قنوات أسلوبية وخطابية متنوعة.

ولئن كانت الملفوظية الثانية تطال العلاقة التناصية أو الحوارية، فإن الملفوظية الأولى تطال العلاقة النصية. وكلتاها — فيما نحسب — تخدم الملاحقة الأفقية والعمودية (أي السياقية والاستبدالية) للنصوص الرحلية المدروسة.

من هنا تنبثق أهمية تسييح النص الغائب (أو الإطار الثقافي الذاتي والعام) بُغية كشف واستيعاب الإستراتيجيات السردية — والخطابية أيضاً — المبنية للكتابة الرحلية والمتصادمة معها.

ويمكن أن نسند هذا الطرح بتصور فان ديك (Van Dijk) القائل بالأهمية القصوى للسياق في بناء التمثيلية الذهنية. وهذا ما يسميه بـ "الافتراض الإستراتيجي للنموذج"، الخطابي طبعاً (2). ذاك النموذج الذي سنكشف عنه من خلال مقارنة تناصية لعناوين الرحلات العربية مع عناوين مؤلفات ذات هاجس موحد وظيفياً.

ولا يكتفي السياق بكشف العلاقة التناسية، بقدر ما يسعف — حسب تصور زاليسكي (Z. L. Zaleski) — في تطويق الظاهرة الأدبية وتفسيرها أحيانا، أو على الأقل تأويلها(3). فنحن حينما نلاحظ هيمنة الهاجس التحديثي على النص الرحلي العربي، وسيطرة آليات خطابية إقناعية جد متنوعة تسفر عن ضرورة تمثّل النموذج الغربي وفق ما تسمح به مصفاة الهوية، فذلك لا يعني سوى تجذر الرحلات العربية في مناخ ثقافة مهضوية تجادل الآخر والتراث والكائن من أجل استنابات حادثة تراهن على نجاعتها كل الخطابات المهمومة بثقل الاندحار الحضاري، وسطوة الزمن الإمبريالي.

من هنا ارتأينا ضرورة متابعة دلالة النصوص الرحلية العربية في ضوء سياقات أو مقامات ملفوظية معينة منحت — وربما ما زالت تمنح — المتلقي قرارا تأويليا نكاد نقول حاسما، مثلما منحت الباث اختيارات نصية سياقية أو ظرفية محددة.

وسيكون من قبيل الإسقاط والتعظيم والمغالطة التأويلية قراءة — وبالتالي فهم — خطاب الرحلة العربية خارج سياق محدد ومسار مرسوم. ذلك لأن السياق والظرف ضروريان ولا غناء عنهما لإعطاء الاختيارات البنائية لهذا الخطاب تبريرا ودلالة.

وما ينبغي التنبيه إليه هنا أيضا هو أن الرحلة تمتلك بدورها دلالات ضمنية — حتى لا نقول متكّمة — لكن بشكل شفاف يسعف المتلقي (القارئ) في تخمين السياق أو تصوره. وتجنبا لكل قراءة حدسية مفتعلة، ارتأينا تفعيل مقاربتنا التخمينية بمعطيات تناسية ترفع كل لبس، وتزيح كل غموض، وتتنكب عن كل قراءة متسرعة. مع العلم أن الملابسات في النصوص السردية عموما، حتى ولو عبّر عنها كلاميا، تندسّ في السياقات على حد تصور أمبيرتو إيكو (Umberto Eco)(4)، اعتبارا لكون الرحلة — وهي ما يهمنا هنا — مشروطة بعوامل تداولية تسمح بسير أغوارها الدلالية، وتفتيق مكونات المعنى. ونحن لا نفهم من كلمة "تداول" هنا بُعدها الذريعي الذي يتوخى الوقوف على نتائج الإرسالية، بل نفهم منها ذلك العقد الضمني الموجود بين الباث والمتلقي الخاضعين لسياق أدبي وخارج — أدبي. إذ لا يمكننا — بأي حال من الأحوال — إغفال ثقل وأهمية ملابسات أو ظرفية الملفوظية في صياغة مقاصد الباث في ملفوظه، والتحكم فيها، وأسلبتها. لذلك لا نخفى علينا أهمية الإفادة التي يقدمها خطاب الرحلة عن الذات الرحلية — الفردية والجمعية — وظروف ملفوظيتها هنا وهناك زمن الكتابة.

ولا شك أن هذا يستجيب لتصورنا عن "الأنا" التي تكتب نص الرحلة، باعتبارها ليست "أنا" من ورق، بل من لحم ودم متأثرة ومؤثرة، فاعلة ومنفعلة، حاضعة لملاسلات ظرفية معينة، شكّلت

وعينها بشكل ما، وأخضعت نصوصها لمكونات نصية (هي مكونات المحكي الرحلي)، ومكونات سياقية أو خارج — نصية (هي مكونات الخطاب). وكتاهما تمكن من الوقوف على اشتغال النص ومنطقه وبناء وآليات محكيه، نظرا للعلاقة الجدلية — والجدالية أيضا — التي تربط خارج النص (أو سياقه السوسيو — ثقافي) بما قبل النص من نصوص أعدت حول الغرب وحضارته وتاريخه وعلومه وأخلاقه تأليفا وترجمة. من هنا نعتبر هذا الرافد الأخير أحد المولدات الهامة لصورة الآخر، قبل أن يجزم الرحالة حقييته لمغادرة الهنا والالتحاق بالهناك.

إن الصورة تُختَم بخاتم العصر. وفي هذا الإطار يمكن تمييز الرافد الثقافي والفكري للعصر الجسّد في ما تيسر لنا استجماعه من عناوين تعكس هاجس المرحلة، وتفسّر آليات اشتغال أدب الرحلات العربية الحديثة، على الرغم من أننا نستشعر غياب دراسات كافية عن تطور الأفكار العربية الحديثة (5). وسدّاً لبعض هذا الفراغ سنحاول تلمّس خصوصية العلاقة عبر — النصية بين الرحلة العربية ومختلف الظواهر الثقافية والفكرية، من ترجمات وتصانيف يحضر فيها الآخر بشكل من الأشكال، وتتجسد فيها الذات بتلويينات ظرفية.

فعلى مستوى الكتابة التاريخية يمكن رصد العناوين التالية، التي تلفت النظر إلى الاهتمام المبكر بتاريخ أمريكا وروسيا وأوروبا. وهي كتابة أسهمت بقسط وافر في تكريس صورة ما لهذه العوالم الغربية تحت غطاء "الموضوعية" و"الواقعية" منذ وقت مبكر:

- 1 — شحادة بطرس أفندي إلياس: تاريخ أمريكا، في جزأين، المطبعة العمومية والمطبعة الأدبية — بيروت 1881.
- 2 — خرباوي الخوري باسيلوس: تاريخ الولايات المتحدة منذ اكتشافها إلى الزمن الحاضر، مطبعة جريدة الدليل — نيويورك 1913.
- 3 — قلفاط نخلة: تاريخ روسيا، في أربعة أجزاء — بيروت 1887.
- 4 — خليل إبراهيم بيدس: العقد التنظيم في أصل الروسيين واعتناقهم الإيمان القديم، المطبعة العثمانية — صيدا 1897.
- 5 — خرباوي الخوري باسيلوس: تاريخ روسيا منذ نشأتها إلى الوقت الحاضر — نيويورك 1911.
- 6 — جرجي زيدان: تاريخ إنجلترا — مصر 1899.
- 7 — رفاعة الطهطاوي: قلائد المفاحر في غريب عوائد الأوائل والأواخر (في أخلاق أوروبا)، مطبعة بولاق — مصر 1249هـ.

8 — الإسكندري عمر أفندي: تاريخ أوروبا الحديثة وآثار حضارتها، في جزئين، مطبعة المعارف — مصر 1917.

وقد تعدّت هذه التعالقات بين الكتابة الرحلية العربية والكتابة التاريخية مستواها غير المباشر أحيانا إلى المستوى المباشر مثلما هو الأمر مع شكيب أرسلان في رحلته: (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية)، حيث قرن الرؤية بالرواية، وضم التاريخ إلى الرحلة (6). وقبّله إلياس إدوار في رحلته: (مشاهد أوروبا وأمريكا)، حيث يلاحظ المتلقي — لأول وهلة — متاحة المكتوب التاريخي للمكتوب الرحلي. ذلك أن هذا الرحالة توخى تصدير كل فصل من فصول رحلته بخلاصة تاريخية تمكن القاريء من مقابلة ماضي الأمم بحاضرها (7). وبالتالي معاينة رانها في ضوء ماضيها.

ولا شك أن الإطلاع على تواريخ تلك البلاد جميعها قد فسح المجال على مصراعيه للخطاب الغيري عموما، وبالتالي ترسيخ شعور النكسة والتخلف مقارنة بالآخر. ولذلك جاءت مرحلة التساؤل عن سرّ تقدمهم وتطورهم وتأخرنا، وعن مكونات هويتنا وهويتهم، ومدنيتهم المادية في ضوء الإسلام، وعن كيفية هوضنا من الكبوة. وهذا ما تجسّده العناوين التالية:

1 — صالح بك حمدي حماد: نحن والرقمي — مصر 1906.

2 — ثابت أيوب: آفة الشرق — بيروت 1910.

3 — إدمون ديمولان: سرّ تقدم الإنجليز السكسونيين، تعريب فتحى باشا، مطبعة المعارف 1317هـ. (ثم أعيد طبعه بمطبعة الشعب سنة 1326هـ).

4 — جوستاف لوبون: سرّ تطور الأمم، تعريب فتحى باشا، مطبعة المعارف 1331هـ. (ثم أعيد طبعه بالمطبعة الرحمانية 1921).

5 — أحمد فتحى زغلول: سرّ تقدم الإنجليز السكسونيين — القاهرة 1911 — 1912.

6 — محمد فريد وجدي: المدنية والإسلام — القاهرة 1933.

7 — الفاحوري عمر أفندي: كيف ينهض العرب؟، مطبعة الأهلية — بيروت 1331هـ.

8 — شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون؟ — القاهرة 1939 — 1940.

9 — أحمد أمين: الشرق والغرب — القاهرة 1955.

الملاحظ، إذن، من خلال استعراضنا لهذه الملفوظات العنوانية أن قراءتها على المستويين السياقي والاستبدالي تبين هيمنة ليكسيمات متناغمة دلالية، تستجيب لهواجس الباحث — مترجما ومصنفاً — وللمعطيات الظرفية أيضا حيث نعثر على التقابلات التالية: نحن - هم، شرق - غرب، آفة - تطور، تأخر - تقدم، إسلام - مدنية.

ولعل صياغة تلك الملفوظات العنوانية في شكل ثنائيات ضدية تشي باستثمار أسلوب المقارنة، من أجل الوقوف على عناصر الاختلاف و"سرّ" التميز. كما أن الإفادة أسلوبيا من الجمل الاستفهامية

يتوخى المقصدية نفسها، وإن كان بشكل أكثر إلحاحاً، وأشدّ تعبيراً عن غصّة السؤال النهضوي الجارح، وحرقة الإحساس الدرامي بدونية الذات ورقى الغير. ولا ريب أن سؤال "الماذا" هو بحث سيزيفي عن "سرّ" تفوق الآخر وتقهر الذات، وبالتالي محاولة حريئة لإيجاد أرضية صالحة لاستنبات أجوبة عن سؤال "الكيف"، القمين بإعداد ترتيبات كيفية استنهاض الذات وتجاوز كبوتها. ولربما كانت تلك التساؤلات الاستنهاضية، وتلك الاستصرافات التحديثية هي التي وجهت النظر إلى الذات من أجل "الثورة العربية الكبرى"، وطرح معنى "القومية" في الميزان، والبحث المضني عن جذورها التاريخية، وما يُثار حولها من آراء وأحاديث ومفاهيم: (الوطنية والعروبة مثلاً). وهذا ما نتبينه من الملفوظات العنوانية التالية:

- 1 — أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، في ثلاث مجلدات — القاهرة 1934.
- 2 — عبد الرحمان الرفاعي: تاريخ الحركة القومية، في مجلدين — القاهرة 1938.
- 3 — قسطنطين زريق: الوعي القومي — بيروت 1939.
- 4 — ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية — القاهرة 1951.
- 5 — ساطع الحصري: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية — القاهرة 1954.
- 6 — ساطع الحصري: محاضرات في نشوء الفكرة القومية — القاهرة 1955.
- 7 — فايز صايغ: رسالة المفكر العربي — بيروت 1955.
- 8 — ساطع الحصري: العروبة بين دعاها ومعارضيها — بيروت 1957.
- 9 — جورج حنا: معنى القومية العربية — بيروت 1959.
- 10 — عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية — بيروت 1960.
- 11 — عبد العزيز الدوري: دراسات في القومية العربية — بيروت 1960.

ومعلوم أن طرح المقارنة الصراعية العنيفة بين الذات والآخر هي التي أعادت إلى الأذهان مفاهيم "الوطنية" و"القومية" و"العروبة"، وما ترتب عنها من تصورات متاخمة. وفي غمرة العديد من الأفكار المنفصلة بصدمة الفكر الغربي — والمتفاعلة معه أحياناً — كتب رفاة الطهطاوي نفسه كثيراً من الأبحاث والدراسات، التي لا نرتاب في أن مصدرها الأساس هو رحلته الباريسية الشهيرة. ولذلك لا نستغرب اقتراحها بما في مجلد واحد يشمل أعماله الكاملة. وفي هذا الإطار نشير إلى كتابه البيداغوجي: (المرشد الأمين للبنات والبنين) (8). وفيه نثر على النهج التوفيقي الذي تحكم في خطابه الرحلي أيضاً، حيث بذل قصارى جهده في التوفيق بين القانون الفرنسي الوضعي والشريعة الإسلامية السماوية. وهي عودة — إن شئنا — للتوفيق القديم — الجديد بين العقل

والنقل. ففي الكتاب آنف الذكر لا يرى الطهطاوي فرقا بين ما يسمى عندنا بأصول الفقه، وما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية أو القواعد العقلية، التي تؤسس عليها أحكامهم المدنية. كما لا يرى فرقا بين فروع الفقه عندنا، والحقوق أو الأحكام المدنية عندهم. وكذا ما نسميه بالعدل والإحسان، وما يعبرون عنه بالحرية والمساواة(9). بل أكثر من ذلك إنه يفسر هذا التشابه بكون قوانين المعاملات الأوروبية استمدت من كتب الفقه الإسلامي(10). وربما لهذا السبب لم تبدُ أوروبا للطهطاوي كخطر سياسي، لأنه كان يشعر بأنها خطر خُلقي(11).

وعلى غرار الطهطاوي نجد رحالة آخر يصدر رحلته: (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) بمقدمة نفيسة تختزل المقصدية الرحلية من "معرفة" خير الدين التونسي "لأحوال" الممالك الأوروبية". تلك المقصدية المفصّح عنها منذ الملفوظ العنواني الدال: "الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية". ويُعنى الكتاب جملةً بتاريخ الدول الإسلامية، وكذا الدول الأوروبية وتركيبها السياسي وقوتها العسكرية. ولعل المقدمة — التي تشكّل "الإصلاحات الضرورية" بؤرة ملفوظها — تكاد تختزل مقصدية المؤلف، وهي ذات شقين: "الأول، حمل أصحاب الغيرة والهمم من رجال الدين والدنيا على السعي في سبيل كل ما يؤول إلى خير الأمة الإسلامية، وهو مدنيتهما، من توسيع حدود المعرفة وتمهيد للسبيل المؤدية إلى الازدهار، مما لا يتم إلا بفضل حكم صالح؛ والثاني، إقناع العدد الغفير من المسلمين الذين غرس في أذهانهم النفور من كل ما يصدر عن غير المسلمين من أعمال ومؤسسات، بـضرورة انفتاحهم إلى ما هو صالح ومنسجم مع الدين الإسلامي من عادات"(12).

وقد كتب محمد المويلحي بدوره العديد من المقالات المرتبطة بالقضايا والموضوعات التي طرحها في رحلته: (حديث عيسى بن هشام)، والتي نشرت في مجلة: "مصباح الشرق". ولا تخفى الدلالة الديوجينية للتسمية.

وإلى جانب الرحلة، شكلت مقالات المويلحي ملمحا من ملامح البحث السيزيفي عن الذات القومية والحضارية.

وعلى الرغم من قوة شعور الإباء وسوء الظن لدى عبد الله النديم، إلا أنه كان يدرك جيدا أن الأمة المصرية لن تستطيع الاكتفاء بذاتها، وبعث نهضتها، بالاعتصار على مواردها الخاصة. وعلى الرغم أيضا من أن أوروبا شكّلت لديه العدو السياسي، إلا أنها كانت المعلم كذلك. لذلك تراه يعنون إحدى مقالاته المسهبة بالسؤال — الغصة: "لماذا يتقدمون ونحن نتأخر؟"(13)، وهو سؤال يتصادى — إلى حد بعيد — مع الملفوظات العنوانية المذكورة آنفا، من حيث هاجس البحث عن مكنم الداء في كيان

"النحن"، وسر التقدم في كينونة الآخر: "آفة الشرق"، "نحن والرقي"، "سرّ تقدم الإنجليز"، "سر تطور الأمم"، "كيف ينهض العرب؟"، "لماذا تأخر المسلمون؟" وكلها عناوين يلابسها الإحساس العميق بفداحة "هنا" وفجائعيته. وكأننا بما تختزل الأسئلة المحورية في المشروع النهضوي العربي المؤجل. ومعلوم أن سؤال "لماذا" إشكاليّ يتوخى تعرية الأسباب والمسببات. إنه سؤال "سياسي" بامتياز، وعلمي بامتياز أيضاً، يطرح قضية "التقدم" و"التأخر" في صلتها بـ"أهم" و"النحن".

وبطريقة سجالية حادة، نرى قاسم أمين يطرح تصوره للمرأة الجديدة وفق مقارنته العنيفة بين وضع هذا الكائن البشري في "البلاد الشرقية" ووضعه في "البلاد الأوروبية". فباختلاف الفضاءين يختلف سلوك الرجل معها، مثلما يختلف شأنها في الحياة العملية: "أنظر إلى البلاد الشرقية تجد أن المرأة في رِقّ الرجل، والرجل في رِقّ الحاكم، فهو ظالم في بيته، مظلوم إذا خرج منه. ثم انظر إلى البلاد الأوروبية تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل." (14)

ولعل هذا الأسلوب الحجاجي الذي توحى به ليكسيمة "أنظر" المكررة في سياق مقارن، يعبر — أصدق تعبير — عن احتفاء قاسم أمين بأسلوب مقارن عزيز على نفس الرحالين العرب، استجاباً لطاقة الدفع، واستنفاراً للمتلقّي من أجل الانفلات من ضغط التردّي وإكراهاته القسرية. وهذا ما توضحه الخطاطة الموالية للقيمتين: الخلاقية (الأكسيولوجية) والقيمية:



ويُعتبر كتاب (المرأة الجديدة). بمثابة رد فعل نفاذ على أولئك الذين انتقدوا كتاب (تحرير المرأة). ولئن اعتُبر هذا الأخير نقطة انطلاق لرصد الخطاط المسلمين — بحسب المفهوم الدارويني للانحطاط — وتدهورهم المستمر، وضعفهم المستشري، الذي يجرمهم من البقاء في عالم تسوده قوانين "الانتقاء

الطبيعي" (15)، فإن كتاب (المرأة الجديدة) بدأ أكثر جرأة وصرامة، فظهر من وراء البنيان الإسلامي بنيان فكري مختلف تماما عنه. ولم يعد قاسم أمين يستند إلى نصوص الشريعة مع تفسيرها بما يعتبره التفسير الصحيح، بل أصبح يستند إلى العلوم والفكر الاجتماعي في الغرب الحديث. وما يعكس هذا التحول هو استشهاده بهربرت سبنسر أكثر من مرة (16).

ويبدو أن الكلام عن المرأة ووضعها "هنا" و"هناك" قد استترف حبرا كثيرا، فكانت كتابات قاسم أمين مثار أبحاث أخرى — تصنيفا وتعريفا — أثارت قضايا المرأة قبل الزواج وبعده في علاقتها بالشرعية والأخلاق والتدبير المتزلي والحجاب، كما هو مبين من خلال الملفات العنوانية الموالية:

- 1 — قاسم أمين: تحرير المرأة — القاهرة 1899.
- 2 — قاسم أمين: المرأة الجديدة — القاهرة 1901.
- 3 — طلعت بك حرب محمد: تربية المرأة والحجاب (وهو بحث في مسألة تحرير المرأة التي أظهرها قاسم بك أمين فوافقه في مبدأ وجوب تربية المرأة وخالفه في تحرير المرأة ورفع الحجاب وغير ذلك)، مطبعة الترقى 1317هـ.
- 4 — عبد المجيد أفندي خير: الدفع المتين في الرد على قاسم بك أمين، مطبعة الترقى 1317هـ.
- 5 — عبد الله جمال الدين أفندي: الاحتجاب (عربه عن التركيبة صالح بك الملقب بأصمعي، وهو رد على تحرير المرأة)، مطبعة الترقى 1318هـ.
- 6 — فريد بك وحدي: المرأة المسلمة (وهو رد على المرأة الجديدة لقاسم بك أمين)، مطبعة الترقى 1319هـ. (وأعيد طبعه بمطبعة هندية سنة 1331هـ).
- 7 — طلعت بك حرب محمد: فصل الخطاب في المرأة والحجاب (رد على المرأة الجديدة لقاسم أمين)، مطبعة الترقى 1319هـ.
- 8 — البولاقى محمد أحمد حسنين الشافعي: الأنيس الجليس في الرد على تحرير المرأة وما فيه من التلبس — مصر 1327هـ.
- 9 — و. حنين: المتزل (بحث في الشؤون المتزلية وكيفية تدبيرها)، مطبعة رعمسيس 1911.
- 10 — عطية حنا أفندي: الحال والمآل في سياسة ربّات الجمال، معرّب عن الإنجليزية، مطبعة هندية 1912.
- 11 — هنري ماريو: خُلق المرأة، تعريب إميل زيدان، مطبعة الهلال 1917.
- 12 — الطاهر الحداد: إمرأتنا في الشريعة والمجتمع — تونس 1920.
- 13 — محمد رشيد رضا: نداء إلى الجنس اللطيف — القاهرة 1932 — 1933.
- 14 — عبد العزيز بك محمد: قبل الزواج وبعده، معرّب — مصر (د.ت).
- 15 — بطرس البستاني: تعليم النساء — بيروت 1929.

وُتدَاخِل هذه الثيمات ما صُنّف وعُرِّب من دراسات بيداغوجية متنوعة، لا نرتاب في أنّها شكّلت نصوصاً غائبة بالنسبة للعديد من الرحلات، لأنّها تسبح في فلك روح العصر، وتحيل بمواجهته، وتمتّح من معينه. ولنا في المملفوظات العنوانية التالية بعض ما يشفي الغليل:

- 1 — رفاة الطهطاوي: المرشد الأمين للبنات والبنين — القاهرة 1872 — 1873.
- 2 — يوسف سر كيس: عاص وشجعان (رواية لخصها عن الفرنسية فيها فوائد جغرافية عن الأقطار الشمالية الأوروبية ونصائح أدبية للبنين)، مطبعة اليسوعيين — بيروت 1874.
- 3 — حسن أفندي توفيق: البيداغوجيا، ج1. مطبعة بولاق 1891. ج2. مطبعة بولاق 1892.
- 4 — ألفونس اسكروس: التربية الاستقلالية، تعريب عبد العزيز بك محمد، ط2. مطبعة المنار 1893.
- 5 — أرتين باشا: القول التام في التعليم العام، تعريب علي بك محبت، مطبعة بولاق 1894.
- 6 — علي أفندي حافظ: التربية الجسمية ببلاد الإنجليز، بولاق 1895.
- 7 — عبد الرحيم سليم: رسالة مرفوعة لنظارة المعارف العمومية المصرية (عن شرح طرق التعليم الابتدائي بمدارس المعلمين بفرنسا)، بولاق 1895.
- 8 — أحمد أفندي الحنفي: إرشاد العائلات إلى تربية البنات — مصر 1897.
- 9 — زينه خليل بن باسبلا اللباني: العلم والتربية، ط2. مطبعة الأهرام — الإسكندرية 1899.
- 10 — إلياس أفندي مارون مدبج: التربية (لخصه عن الفرنسية) — مصر 1902.
- 11 — السباعي محمد أفندي: التربية (للفيلسوف الإنجليزي سبنسر)، مطبعة الجريدة 1908.
- 12 — صفيير يوسف: ترقّي العائلات في تربية البنات — بيروت 1910.
- 13 — بول دومر: كتاب البنين، تعريب عبد الغني العريسي — بيروت 1911.
- 14 — قرمان إسكندر أفندي: الرقي والاعتدال (الجزء الأول يبحث في تهذيب البنات ونتائجه من الوجهتين الاجتماعية والأخلاقية)، مطبعة المعارف 1912.
- 15 — حسن أفندي توفيق: مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات، مطبعة بولاق 1315هـ.
- 16 — عبد العزيز جاويش: غنية المؤدبين في الطرق الحديثة للتربية والتعليم، مطبعة الشعب 1321هـ.
- 17 — فينيلون: تربية البنات، تعريب صالح بك حمدي حماد — مصر 1327هـ.

وكثيراً ما كان الإصلاح التربوي والاجتماعي مقروناً — وربما مشروطاً — بالإصلاح السياسي، الذي وجدنا له صدىً مجلجلاً في الرحلات العربية، من حديث عن المؤسسات البرلمانية الأوروبية والدراسات والحريات العامة، وغير ذلك مما لا تضمنه سلطة مطلقة مستبدة. فقد نشرت جريدة "لسان المغرب" خطاباً موجهها إلى السلطان عبد الحفيظ يربط "التخلف" بالاستبداد، و"النهضة" بممارسة الحقوق الدستورية الديمقراطية، ومنه تقتطف: "والدول الحاضرة يوم

كانت مستبدة، وكانت سلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة، ولا ما يدل على أنها دول قديرة، وحيث خلص الله تلك الأرواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها، وتنقلت في أطوار الكمالات، حتى وصلت اليوم إلى ما وصلت إليه. وكفى حجة على هذا أمة اليابان، تلك الشمس المشرقة في آفاق آسيا التي كانت في مؤخرة الدول قبل أربعين سنة وأصبحت اليوم في مصاف الدول العظيمة، وانتصرت ذلك الانتصار العجيب على أعظم دولة من دول العالم: روسيا. وغير بعيد عنا الانقلاب العجيب الذي حصل في دولة تركيا العلية إثر منح جلالة أمير المؤمنين لشعبه الدستور، وأمره بجمع مجلس المبعوثان. فعسى أن نفتدي به، ونقوم بخدمة بلادنا، ونسعى جهدا في إصلاح حالتها(17)."

واللافت للنظر هنا — وهذا ما نجد له صدى في الرحلات العربية — هو الإشادة بالنموذج الغربي مطبّقاً في الشرق: (تركيا واليابان).

وفي مقالة سياسية له، تحدث محمد بن الحسن الحجوي الرحالة المغربي عن فكرة "الشورى" أو "الديموقراطية". والمصطلحان في نظره متجانسان، ضمانا لتكثيف المفاهيم وفق ما هو موجود في ثقافة الذات: "إن مولاي عبد العزيز قد جالت في رأسه فكرة الشورى والديمقراطية، وأتى سفاؤه بهذه الأفكار فعجل بها (...)، لكن الأمة جاهلة، والوزراء معهم قصور وتنافس لم يعرفوا كيف يتصرفون في هذه المنقبة التي هي أمانة وضعت بين أيديهم فاستحالت إلى الفساد الذي لمسناه، فصارت وصار الشر.(18)"

وهنا لا بد أن تستوقفنا تلك المجهودات المتعلقة بتعريب القانون المدني لبعض البلاد الأوروبية، ومراسلات بعض المثقفين للسلطين بشأن إصلاح الدولة، وترتيب أمور الرعية، والإقلاع عن الاستبداد، وتمثل علم السياسة ومبادئ حقوق الرعية وقواعد التنظيمات الدستورية. ولنا في الملفوظات العنوانية الآتية ما يفسر توقف العديد من رحالينا — بغير قليل من الانبهار — عند بعض المؤسسات السياسية الغربية، إيماناً منهم بنجاعة التشبث بها، وسداد استيعابها:

- 1 — رفاة الطهطاوي: تعريب القانون المدني الفرنسي، في جزئين، مطبعة بولاق 1293هـ.
- 2 — فتحي باشا: من أمير إلى سلطان (كتاب أرسله الأمير مصطفى باشا إلى السلطان عبد العزيز سنة 1866م بشأن إصلاح الدولة)، معرب — مصر 1331هـ.
- 3 — دلال حيراثيل بن عبد الله: العرش والهيكل (قصيدة في 151 بيتا لخصها عن تأليف فولتير طعن بها في أرباب الدين المسيحي وأصحاب السلطة الاستبدادية)، طبع حجر — باريس 1864.

- 4 — عبد الأحد سليم أفندي: علم السياسة، معرب — مصر (د.ت).
- 5 — عبد الله جمال الدين أفندي: السياسة الشرعية وحقوق الراعي وسعادة الرعية، معرب، مطبعة الترقى 1318هـ.
- 6 — صبري مصطفى بك: مبادئ العلوم السياسية والتاريخ الدستوري، (وضعه لتلامذة السنة الرابعة من المدارس الثانوية) — مصر 1327هـ.
- 7 — الحداد نقولا أفندي: تاريخ أساس الشرائع الإنكليزية أو سنة الارتقاء في نظام الحكومة الإنكليزية مصدر القوانين الأساسية للحكومات الدستورية كلها، ألفه دافد وطسون راني) — مصر (د.ت).
- 8 — بيرم الخامس التونسي الشيخ محمد: ملاحظات سياسية عن التنظيمات اللازمة للدولة العلية، (قُدِّمت للسلطان عبد الحميد) — مصر (د.ت).
- 9 — ريجاني أمين: الثورة الفرنسية — نيويورك 1903.
- 10 — قبعين سليم: الدستور والأحرار — مصر 1908.
- 11 — ريجاني أمين: في نار المراقبة وفي نور الدستور — بيروت (د.ت).
- 12 — ثابت أيوب: عبرة وذكرى أو كلمة حول الدستور (مقالات في المذاهب السياسية وأنه لا دخل للأديان في ترقى نوع الإنسان) — بيروت 1909.
- وستطابق هذه الإستراتيجية الإصلاحية تصورات اقتصادية مؤسسة على الاعتناء بـ"النظام" أولاً وأخيراً: "أيتها الشبيبة علقت عليكم آمال الأمة، نشطوا الصنائع وأتقنوها وأدخلوها فيها روحاً جديدة من النظام والإتقان والرقى واللفظ، ووقفوا بين القديم والذوق الحاضر" (19).
- ويشكل النظام — الذي أصاب شعاف قلوب رحالينا العرب ومنهم الحجوي نفسه — عصب تقدم الآخر وتفوقه، في حين تجسد الفوضى سمة الذات المتخلفة: "وعليه، فليُنظَّم العالم منا دروسه وكتابته، والتاجر تجارته، والفلاح فلاحته، والصانع صنعته، ورب البيت بيته، والكل عليه أن يُدخِل النظام في كل شيء، ليحفظ وقته الذي هو أنفُس ما يُحفظ. (20)"
- ولعل هذا المثقف المخزني الذي امتهن الوزارة، وخبر التجارة، وهتك أسرار تقدم المدينة الغربية — ماديا وخلقيا دون إشعارنا بأي تعارض بين هذين القطبين — كان من أكثر الناس تحمسا لبناء الرقي على الإقلاع الاقتصادي غير المشروط بسفالة الأخلاق: "ما ارتقت أوروبا وأمريكا إلا بالشركات ذات السهم. فلا تجد الأعمال العظيمة: سكك حديدية أو فبارك عظيمة أو مؤسسات مهمة كالبنوك إلا متألفة من شركات المساهمة. وذلك بسبب علمهم، وحصول الثقة فيما بينهم، وعدم سفالة أخلاقهم. (21)"

وسواء ارتبط التقدم بالإصلاح الاقتصادي أم السياسي أم الاجتماعي أم بهذه الأشياء كلها، فإن "المعرفة" تظل هي الفاعل الأساس في نحو الجهل والتخلف، والعنصر الدينامي في تحريك آلة التقدم: "تقدموا لأنه قدمهم العلم بالمعرفة، وأخركم الجهل بعلمها"(22).

وما يثير الانتباه لدى الحجوي — كرحالة وكمحلل اقتصادي — هو حرصه على تأكيد التوازي بين الترقى والتمدن، وضرورة تطوير التجارة في المجتمع الإسلامي. إذ الترقى والتمدن عنده يمران عبر قناة التجارة. وتطوير هذه الأخيرة يستوجب تطوير العقلية السائدة بالمعارف العصرية والأساليب الحديثة التي يأخذ بها التاجر الأوروبي(23). ولا سبيل إلى كل ذلك — حسب الحجوي دائما — إلا بالانفتاح على اللغات الأجنبية، لأنه: "لا يتبين ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية. فلا سبيل إلى هذه العلوم، التي هي المقصود بالترقى والتمدن، إلا بمعرفة اللغة الأجنبية"(24).

وقد راود هذا الحلم "جمعية التعريب" منذ تأسيسها سنة 1893م على يد علي باشا أبو الفتوح ومحمد بك كامل وصالح بك نور الدين ومحمد مسعود، مستهدفة ترجمة كتاب جيفوننس: (الاقتصاد السياسي)(25). ثم انحلت الجمعية بعد سنة لتفرق أعضائها(26). غير أن الجهود الفردية لم تكن أقل شأواً من الجهود المنظم. وفي هذا الإطار نذكر كتاب: (تعريب قانون التجارة) لرفاعة الطهطاوي(27). وهناك مؤلفات أخرى تُعلي من شأن الدور الاقتصادي في العملية النهضوية. فبعد أن ساهم في أوروبا، ألفت عثمان بك أبو شنب كتابا كتابا أسهب فيه في وصف النقابات الزراعية التي شاهدها وشركات التعاون الزراعي(28). مثلما حاول فرح أنطون في كتاب له الربط بين ثلوث الدين والعلم والمال(29). وكان وراء هذا التوجه شيوع مفهوم جديد "للاجتهد" و"العلم" الحق، نجد صدهاء في كتاب رفاعة الطهطاوي: (القول السديد في الاجتهاد والتقليد)(30)، وهذا ما يبدو من خلال في الجدل العنيف الذي دار أواخر القرن التاسع عشر حول نظرية النشوء والارتقاء لداروين:

- 1 — شبلي شمیل: شرح يخبر على مذهب داروين، مطبعة المحروسة — الإسكندرية 1884.
- 2 — شبلي شمیل: فلسفة النشوء والارتقاء، مطبعة المقتطف. 1910.
- 3 — إبراهيم الحوراني: مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء في إبطال مذهب داروين — بيروت 1884.
- 4 — إبراهيم الحوراني: الحق اليقين في الرد على بطل داروين — بيروت 1886.
- 5 — جرجس صفيير: كتاب في أصل الإنسان والكائنات دحضا لمذهب التحول ورداً على الدكتور شبلي شمیل، مطبعة اليسوعيين — بيروت 1890.

فعلاوة على "النظام"، يبدو — انطلاقاً من هذا المناخ — أن أساس العلم لدى رحالة همضوي كالحجوي هو: "الاجتهاد"، الذي هو الباب المفضي — بكل تأكيد — إلى الاختراع والاكتشاف والابتكار والتنافس واليقظة وبالتالي التقدم: "يظهر لي أن ندرة المجتهدين أو عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها. فإذا استيقظت من سباتها، وانجلي عنها كابوس الخمول، وتقدمت في مظاهر حياتها التي أجلها العلوم، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كالأمم الأوروبية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدين مع علماء الدنيا فيظهر المجتهدون." (31)

وفي هذا الإطار يمكن فهم دعوة الرجل — دون حرج — إلى توطيد أسباب الإتصال بالغرب ومدنيته. تلك المدينة التي أحس سعيد حجي بفداحة ابتعاد الذات العربية عنها. وفي الإبتعاد عنها منشأ الخمول والجهل والأناية: "البون شاسع بين مدينة العصر والحياة التي نحيها: فبينما مدينة العصر تمثل النشاط، تمثل نحن الخمول، وبينما مدينة العصر تتكيف في المعرفة الحقة في جميع نواحي الحياة، إذ الجهالة تخيم من جميع نواحيها، وبينما المدنية العصرية تعلمك أن تعيش للمجموع، إذ نحن لا نرعى إلا مصالحنا الشخصية، ويعلن كل واحد منا في كل مناسبة: بعدي الطوفان." (32)

وشأنه شأن العديد من المصلحين والرحالة العرب عمد سعيد حجي إلى لفت الانتباه إلى ضرورة التوفيق بين العنصر الإنساني: (مدنية الغرب)، والعنصر المحلي: (الماضي الذهبي)، في معالجته الواعية لإشكالية النهضة: "المدنية تتكون من عنصرين: عنصر إنساني هو ما يبثه العلم في الوسط، وعنصر شعبي هو ما تكوّنه مجموع التقاليد المحلية.

فالعنصر الأول سنقتبسه أين صادفناه بعد أن أضعناه مدة مضت. والعنصر الثاني لا يُقتبس من الغير، وإنما يُكتشف في الأمة ويُعمل على إحيائه واستثماره بمزجه وتفاعله مع العنصر الأول. وبذلك نُحيي المدنية المغربية التي ظل نورها يسطع طيلة القرون الوسطى." (33)

ولئن عمد حجي إلى تأصيل الحدائث، فقد عمل علال الفاسي على تحديث الأصالة. فالملاحظ أن الأول كان قريباً من أفكار الحجوي، لذلك دعا هو الآخر أبناء القرويين إلى دراسة اللغة الفرنسية بعد التمكن من لغة الضاد. الشيء الذي يمكن — في اعتباره — من إيجاد شريحة مثقفة تشكل جسراً نحو الآخر المتطور: "يجب أن يتجه أبناء القرويين إلى دراسة اللغة الفرنسية بعد أن يتمكنوا من اللغة

العربية (...). وإيجاد هذه الحلقة المفقودة بين المتقنين هو الذي يضمن للمغرب فهضة فكرية صحيحة تهمضم إنتاج المدنية العصرية وتنتج للمغرب بالعربية آثارا يُكتب لها الخلود." (34)

وفي ضوء هذا الاختيار الشاققي يمكننا فهم لماذا أخذ يظهر بالعربية — منذ السبعينيات من

القرن التاسع عشر — نوعان جديان من المنشورات الصحفية:

أ — الصحف السياسية المستقلة، التي تنشر أخبار السياسات العالمية وتوجهاتها.

ب — المجلات التي كانت تعرض أفكار أوروبا وأمريكا واختراعاتهما على الفكر العربي.

وكانت أشهر تلك المجلات اللبنانية المصرية هي: "المقتطف"، التي أنشأها يعقوب صروف

وفارس نمر سنة 1876، وبقيت تصدر طيلة نصف قرن. وإذا تصفحنا عدد كانون الثاني لسنة 1896

سنجد أنه يشمل مقالات في:

- الأمراض السارية. - المكروبات في الهواء. - الفروق بين الرجال والنساء. - تحليل فلسفي

لمركز الإنسان بين الحيوانات. - مقال عن الإدارة في جبل لبنان في عهد رستم باشا. -

ملخص لتقرير لجنة أمريكية عن أسس التربية. - أقوال في السياسة. - أخبار عن الأساليب

الزراعية والصناعية والاكتشافات العلمية (35).

كما ظهرت مجلة "الهلال" سنة 1892. وهي تتناول التاريخ والسياسة والتربية والنظام

الاجتماعي وبعض القضايا العلمية. ووراء هذه المواضيع تكمن أفكار حول ماهية الحقيقة وكيفية

البحث عنها، وما على القارئ العربي أن يعرفه من المدنية وابتكاراتها وقيمتها العالمية (36). وقد كانت

أفكار المصلحين — من الذين زاروا الغرب أو سمعوا عنه أو رحل هو إليهم عن طريق الاستعمار —

تراعي الأفكار الإصلاحية عامة، وتستمد سندها من الشهادات الغربية نفسها. فالكواكي مثلا في

كتابه: (طبائع الاستبداد) و (أم القرى) لم يخرج عن آراء محمد عبده ورشيد رضا في الإسلام، وعن

أفكار بلنط في كتابه: (مستقبل الإسلام)، كما استمد بعض أفكاره عن الاستبداد مما كتبه ألفياري في

الموضوع نفسه (37).

ومحمد عبده نفسه قد نقل — شأنه شأن أتباعه — العديد من الأفكار السائدة في أوروبا

وطبقها على المجتمع، محاولا صياغة مبادئ المجتمع الإسلامي صياغة جديدة تفضي إلى فكرة مجتمع

قومي علماني يكون فيه الإسلام مقبولا ومحترما ومساعد على شد الروابط العاطفية بين المواطنين (38).

فقد أدرك — عن طريق احتكاكه المباشر بالغرب — أن الشعوب الإسلامية لن تصبح قوية ومزدهرة

إلا إذا اقتبست من أوروبا العلوم العقلية، دون التخلي عن الإسلام، لأن هذا الأخير يَحْتَّ على قبول منتجات العقل (39).

وقد كان محمد عبده يزور أوروبا كلما سنحت له الفرصة لتجديد نفسه كما كان يقول، ولإنعاش آماله في شفاء العالم الإسلامي من حالته المتردي (40). وكما سنجد لدى العديد من الرحالين العرب، نراه يؤكد أن الإسلام صالح كأساس خلقي لمجتمع حديث وتقدمي. وغاية ما يمكن فعله هو إضفاء طابع شرعي على الوجه الصالح من التقدم والتغيير. لذلك بدا الإسلام بالنسبة له كوسط بين طرفين: فمن جهة إنه دين منسجم مع متطلبات العقل البشري واكتشافات العلم، ومن جهة أخرى إنه منبع للاحتفاظ بفكرة الله تعالى. لذلك أيقن أن الأوروبيين يذوقون من فتن مدينتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب المخرج منها، فلا يجدونه إلا في الإسلام (41).

وفكرة المدنية هذه كانت من بذور الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، دخلت العالم الإسلامي بواسطة جمال الدين الأفغاني على الخصوص. وكان غيزو أول من عبّر عنها تعبيراً كلاسياً في محاضراته عن تاريخ المدنية في أوروبا. الشيء الذي يؤكد أن تهجير الكثير من الأفكار والمفاهيم الغربية، كان يقف وراء احتمالية الصورة الغربية في الرحلات العربية.

أما رشيد رضا، فما أثاره ليس هو الإعجاب — كما هو ديدن صديقه محمد كرد علي صاحب (غرائب الغرب) — بقدر ما كان الضرورة. إذ كان يعتقد أنه من الممكن أن تعتنق أوروبا الإسلام لولا الكنيسة المسيحية ورجال السياسة وانحطاط المسلمين. وقد تردد صدى هذه الفكرة لدى رحالين كثيرين أمثال الطهطاوي وخير الدين التونسي. ومفادها أن المسلمين بقبولهم المدنية الغربية، إنما "يستعيدون" ما كان لهم من قبل. ذلك لأن أوروبا نفسها ما تقدمت إلا بفضل ما تعلمته من المسلمين في إسبانيا والأراضي المقدسة (42). ويبدو أن رشيد رضا (1865 — 1925) قد خبر ملامح العلم الحديث وعالم أوروبا وأمريكا من خلال كتابات صحفيي القاهرة ولبنان. ولذلك بادر — شأنه شأن الأفغاني ومحمد عبده — بالسؤال المركزي في الفكر النهضوي: "لماذا البلدان الإسلامية متخلفة في كل ناحية من نواحي التمدن؟" ويعتقد أن اكتساب بعض المهارات التقنية يتوقف على اكتساب الملكات الخلقية والمبديء العقلية، وهي موجودة في الإسلام. فما هي إذن تلك المبديء المشتركة بين الإسلام والمدنية الحديثة؟ إنما السعي. فالجهد الإيجابي جوهر الإسلام. وهذا هو معنى "الجهاد" في مفهومه الأعم. والأوروبيون يتصفون بهذه الحيوية أكثر من غيرهم في العالم الحديث. ولهذا فهم مستعدون لبذل حياتهم ومالهم في سبيل أمتهم (43).

وطه حسين نفسه طغت على خياله صورة أوروبا التي استشفها للمرة الأولى من خلال ما كتبه عنها الصحفيون اللبنانيون، ثم ما خبره بنفسه في رحلته الدراسية. ولذلك تراه يقول في كتابه: (مستقبل الثقافة) بأنه آن الأوان، بعد تحقيق الاستقلال: "أن نمحو من قلوب المصريين، أفراداً وجماعات، هذا الوهم الآثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوروبي، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبية، ومنحوا عقولاً غير العقول الأوروبية. علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات." (44)

فمنذ القرن الثامن عشر إذن احتك العرب من خلال الدولة العثمانية بأوروبا الناهضة القوية. ولم يكن الاحتكاك المباشر للعرب بأوروبا إلا أواخر القرن الثامن عشر، فكان ذلك إيذاناً بميلاد لحظة المتأقفة العسيرة المتولدة عن الصدمة الحضارية العاتية. من هنا كان الالتفات المبكر إلى ضرورة اقتباس معالم التفوق الأوروبي في الميدان العسكري:

1 — عثمان بك جلال المصري: نصائح عمومية في فن العسكرية، معرب، بولاق 1289هـ.

2 — عثمان بك جلال المصري: تطبيق تعليم الأسلحة على الطريقة الحديدية، معرب، مطبعة وادي النيل 1290هـ.

ولعل صدى هذا الوضع غير المريح — المتأرجح بين استشعار خطر التدخل الخارجي (الغربي) ومظاهر الأزمة البنيوية الداخلية (الشرقية) — قد تردد كثيراً في الخطاب النهضوي السلفي الذي راهن — شأنه شأن الخطاب الرحلي عموماً — على المستقبل ضمناً لاستجلاب وسائل التقدم الغربي، ودحراً للاستعمار. ولذا وجدنا أن رحالينا العرب — منذ جيل الرواد — انشغلوا بصياغة مشروع نهضوي متفاعل مع الغرب.

خلاصة:

تلك — فيما نظن — حدود الصور والأفكار التي سكنت أرواح الرحالين العرب وهم يرتادون مجاهيل الغرب. وهي مؤثرات صاغت قلوبهم عبر تفاعل مكونات الصورة بسياقها العبر — نصي، باعتباره رافداً من روافد هذا التفاعل.

ونستطيع القول إن المكوّن السياقي، الذي فرضه مناخ ثقافي معين، قد شكل — دون جدال — ثوابت الصورة الغربية. تلك الثوابت التي يرى الرحالة العربي نفسه مجبراً — بشكل شعوري أو لا شعوري — على استجلاهما لتوصيف الآخر من خلالها. وعلى هذا الأساس نرى أن الصورة تحمل بين طباقها مؤشرات عن نظرة مستحلبة، استقاها الكيان الواصف من رصيده الإيديولوجي الذاتي والجمعي.

ولعل هذا يسعف في فهم الكيفية التي تم بها اختيار مكُون صورة ثقافية ما بدل آخر، استجابة للإخراط في منظومة ثقافية مَهْضوية، وأملا في الانسلاخ من وضع تاريخي نكوصي. الشيء الذي يعني أن آليات اشتغال النص الرحلي كانت محكومة بماحسها الوظيفي. وهو ما يسوغ لنا التعامل مع الرحلة كخطاب مفتوح على سياقه المرجعي، قلقٍ على إرساليته، مهووس بالاتصال والإيصال، شغوف بنموذج ثقافي معين فيه أروع ما لدى الآخر وأهْي ما ورثته الذات. ولا يُفهم هذا الموقف المراوح بين الشوق إلى الحاضر الفردوسي للهنالك، والحنين إلى الماضي الذهبي للهناء، إلا في إطار ربط النتاج الرحلي العربي بسياقه السوسيو — ثقافي، ذلك لأنه لا يمكن فصل الأثر الأدبي عن السياق الثقافي الذي يندرج فيه. وخلافا لذلك ينبغي غرسه في إطار التعبير الثقافي الخاص بالمتجمع مأخوذا في لحظة من لحظات تطوره. وإذا كان هذا الأمر يصدق على الآثار الأدبية جملة وتفصيلا، فإن جنس أدب الرحلة — حسب جاك فوازين (J. Voisine) وأنا جيشوفا (Hana Jechová) — أكثر التصاقا بالسياق السوسيو — ثقافي من حيث المحتوى وشروط الإنتاج معا(45).

هوامش

- 1 - Joseph Courtés : Sémantique De L'Enoncé - Applications Pratiques ; Hachette – Paris 1989.p48.
- 2 - Teun. A. Van Dijk : Strategies of Discourse Comprehension - Newyork - London 1983. p6.
- 3 - Z. L. Zaleski : " La psychologie du Voyage et La vocation de Comparatiste " ; in : Connaissance de l'Etranger , Mélanges offerts à la mémoire de Jean - Marie Carré ; Lib. M. Didier - Paris 1964. p113.
- 4 - Umberto Eco : Lector in Fabula ; Traduit de L'Italien par M. Bouzaher , Bernard Grasset - Paris 1985.p19.
- 5 — محمد عابد الجابري: "تطور الأنتلجانسيا المغربية: الأصالة والتحديث في المغرب"، ضمن: الأنتلجانسيا في المغرب العربي، إشراف ع. جفلول، دار الحدائة 1984. ص49.
- 6 — شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية — مصر 1936. ص14.
- 7 — أنظر: إلياس إدوار: مشاهد أوروبا وأمريكا، مطبعة المقتطف — مصر 1900.
- 8 — رفاعة الطهطاوي: المرشد الأمين للبنات والبنين — القاهرة 1872 — 1873. أو أظر الفصل الخامس من الباب الرابع ضمن الأعمال الكاملة للطهطاوي، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 9 — رفاعة الطهطاوي: الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص469.
- 10 — نفسه، الباب الثاني، الفصل الرابع، ص369.
- 11 — ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798 — 1939. ط4. ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر 1977. ص107.
- 12 — خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك — تونس 1867 — 1868. ص5.
- 13 — ألبرت حوراني، مرجع سابق، ص239.
- 14 — قاسم أمين: المرأة الجديدة — القاهرة 1901. ص17.
- 15 — قاسم أمين: تحرير المرأة — القاهرة 1899. ص116.
- 16 — ألبرت حوراني، مرجع سابق، ص205.
- 17 — محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص23.

- 18 — سعيد بنسعيد: "المتقف المخزني وتحديث الدولة: بدايات السلفية الجديدة في المغرب"، ضمن: الأنتلجنسيا في المغرب العربي، مرجع سابق، ص 84.
- 19 — المرجع السابق، ص 70.
- 20 — نفسه، ص 72.
- 21 — نفسه، ص 75.
- 22 — نفسه، ص 75.
- 23 — نفسه، ص 73 — 74.
- 24 — نفسه، ص 74.
- 25 — جيفنس: الاقتصاد السياسي، تعريب علي باشا أبو الفتوح — مصر 1894.
- 26 — يوسف إلياس سر كيس: معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، مطبعة سر كيس — مصر 1928، ص 709.
- 27 — رفاة الطهطاوي: تعريب قانون التجارة — يولاق 1285هـ.
- 28 — عثمان بك أبو شنب: شركات التعاون الزراعي في أوروبا — مصر 1913.
- 29 — فرح أنطون: الدين والعلم والمال — إسكندرية 1903.
- 30 — رفاة الطهطاوي: القول السديد في الاجتهاد والتقليد — مصر 1287هـ.
- 31 — سعيد بنسعيد، مرجع سابق، ص 76.
- 32 — محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 44.
- 33 — نفسه، ص 44 — 45.
- 34 — نفسه، ص 43.
- 35 — ألبرت حوراني، مرجع سابق، ص 294.
- 36 — نفسه، ص 295.
- 37 — نفسه، ص 324.
- 38 — نفسه، ص 293.
- 39 — نفسه، ص 186.
- 40 — نفسه، ص 168.
- 41 — نفسه، ص 178.
- 42 — نفسه، ص 282 — 283.
- 43 — نفسه، ص 274 — 275.
- 44 — نفسه، ص 391 و 393.
- Hana Jechova et Jacques Voisine : " Les voyageurs devant L'événement révolutionnaire " ; -45
Cahiers D'Histoire Littéraire Comparée , N° 5 - 6 . Imprimerie Centrale de L'Artois 1981.p113.